الفصل الثاني

عقيدة السنوسية كطريقة صوفيّة

مباحث الفصل الثاني

عقيدة السنوسية كطريقة صوفيّة

- سيرة المؤسس وأهدافه السياسية
- المحتوى الفكري والفقهي للعقيدة السنوسية
- السنوسية ومفاهيم الاجتهاد

الفصل الثاني

عقيدة السنوسية كطريقة صوفيّة

كانت طرق التصوّف منتشرة في جميع انحاء العالم الاسلامي؛ من المغرب الى الصين ومن جزر القمر حتى سوماطره. وكلمة الطريقة عُني بها في القرنين التاسع والعاشر للميلاد النهج الباطني الذي يقود الفرد عمليّا تلبية للنداء الصّوفي، وبعد القرن الحادي عشر تطوّر المفهوم ليشمل جميع المذاهب والرّياضة الرّوحيّة التي وُضعت لمختلف هذه المدارس في العالم الإسلامي. ومنذ نشأتها وانتشارها في القرنين التاسع والعاشر للميلاد، أخذت تتفاوت فيما بينها في القوة والسطوة ونطاق الانتشار، كما أن رسالتها ومحتوى دعوتها كانت متباينة. وإن انطلقت جميعها - خاصة في بلدان المذهب السنّي - في مظاهر متجانسة من الشعائر والطقوس التي مرّ ذكرها. وبعضها جنح إلى البدع مثل (الذّكر) بضرب الدّفوف والغناء والعزف على الآلات الموسيقيّة والقيام بحركات الشعوذة، بما في ذلك تجريح البدن طلبا للنشوة. وكان شيوخ هذه الطرق يكوّنونها بإيثار العزلة والتقشّف والهجرة والإفراط في الصيام، في حلقات خاصة سُمّيت (الرباط) في المشرق العربي و(الزاوية) في المغرب العربي و(الخانكه) في الفارسية و(التكيّه) في التركية. أما شيوخها فكانوا يلقبون في العربية: بشيخ السجّادة، المقدّم، النقيب، الخليفة، وفي الفارسية بلقب (البير) وفي التركية (البابا). ويشكّل الأتباع والمريدون او الدراويش كما يسمّون بالفارسية، حلقات الإخوان. وحتى يتسنّى لهم المناخ الملائم لتعبئة الجموع وتكتيل الأتباع، بعيدا عن مراقبة السلطة ودسائس الخصوم، دعا هؤلاء الشيوخ إلى الهجرة استلهاما للآية

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ النساء: ١٠٠

وقدّر عدد هذه الطرق التي تم التعرّف عليها ب ١٨٢ طريقة ٧٠ منها كانت ذائعة الصيت؛ من بينها سبع يعود انشاؤها الى اكثر من الف سنة، ما برحت تتداخل وتتفرع وتتوالد من بعضها البعض عبر تلك القرون.

إلا أن الطريقة التي يمكن اعتبارها أمّ الطرق، كانت الصوفيّة الجنيدية التي أشرنا إلى أن شيخها الجنيد البغدادي الذي نشأ وتوفي في بغداد العام ٩١٠ م كان المعلّم الأول الأكبر للتصوّف. وقد بدأت في بغداد كمدرسة في الفقه وعلم الكلام، ثم تطوّرت إلى التصوّف

المنظّم على نطاق أممي في القرن الحادي عشر، فانبثقت عنها طريقة خواجقان الفارسية، وقد انتشرت في تركستان، وشقيقتها الكبراوية ثم القادريّة الشهيرة التي أسّسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ١١٦٦ م. والتي تفرّعت عنها عدّة طرق في مصر واليمن والمغرب والسودان والصومال والهند. أما في ليبيا فقد انبثقت عنها **السنوسية** [١] وينقل المؤرخ الإيطالي فرانشيسكو ماريانو عن كتاب (الذهب الأبريز في أعمال سيدي عبد العزيز) لمؤلفه سيدي أحمد بن مبارك[٢] ان تفرّع السنوسية عن القادرية، مثلها مثل الشاذليّة، يرجع إلى تتلمذ مؤسّس الطريقة او الإخوانية الشيخ محمد بن علي السنوسي ويطلق عليه لقب السنوسي الكبير - وهو اللقب الذي سنستعمله في هذا الفصل - على يد سيدي أحمد بن إدريس الفاسي، الذي تتلمذ بدوره على يد الشيخ عبد العزيز بن دبّاغ مؤسس المدرسة القادرية في مدينة فاس عام ١٧١٣ م. وهناك رواية أخرى أوردها المؤرّخان **DEPONET ET CAPPOLANI** تقول إن السنوسي الكبير تتلمذ على يد شيخ الطريقة الدرواقية، التي اعتنقها الأمير عبد القادر الجزائري في ثورته وتصدّيه للغزو الفرنسي للجزائر عام١٨٣٥ . وحسب الحشائشي فقد تتلمذ أيضا على الشيخ أحمد التيجاني. وبعد وفاة الشيخ احمد بن إدريس بصوبية بالحجاز، إنقسمت القادرية إلى طريقتين متنافستين بل متخاصمتين؛ هما الميرغنية نسبة إلى السيد عثمان الميرغني[٣]، والسنوسية نسبة الى السيد محمد إبن علي السنوسي. وعاد كلاهما الى مكة المكرّمة بعد ان أتمّ دراسته. فكوّن الاول زاويته في دار الخيزران والثاني على قمّة جبل أبي قبيس. ويذكر المؤرخ الفرنسي (دوفيريير)، الذي سنستشهد لاحقا بكتابته عن السنوسيّة، أن السنوسي الكبير " شيّد بيته بجوار قبور الأنبياء آدم وحوّاء وشيت (عليهم السلام) على جبل أبي قبيس، وحوّله إلى زاوية يرأسها مقدّم وزوّدها بمكتبة تحتوي على ثمانية الاف كتاب ."

وخلاصة القول إن الطرق الصوفية وان بدأت بالطقوس والتعاويذ الروحانية، إلا أن بعضها تطوّر خلال الحِقب التاريخية إلى مؤسّسات أو تنظيمات تهتم بالأمور الدنيويّة

---

١ موسوعة –أسلام-المختصرة ، ص ٥٧٣ – مرجع سابق.

2 FRANCESCO MARIANO - LA QUESTIONE DI GIARABUB -P 20 ZANICHELLI(BOLOGNIA)1925

٣ ولد بالطائف عام ١٧٩٣ م. وتوفي به عام ١٨٧٣م. ويلقب بالختم اشارة الى انه خاتم الأولياء وتأتي مرتبته بعد الرّسول، ومن هنا أشتق إسم الطريقة الختمية، كما تسمى الطريقة الميرغنية نسبة لجد المؤسس عبدالله الميرغني المحجوب. وتتركز الطريقة من حيث الأتباع والنفوذ الآن في السّودان. وقد تبنت الختميّة في بداياتها فكرة وحدة الوجود، كما أنها إتبعت مذهب إبن عربي عن النور المحمدي مستخدمة مصطلحات الوحدة والتجلي والانبجاس والظهور والفيض وغيرها من المصطلحات الفلسفية الصوفية التي فسّرنا معانيها.

وتدير شئون أتباعها ومريديها، وبالتالي تحوّلت إلى ما يشبه التنظيمات والأحزاب السياسية في وقتنا الحاضر، وحازت سطوة إجتماعية كان لا بدّ لها من ان تنافس الحكومة المركزيّة وامتداداتها في الأقاليم وتصطدم بها. وفي التاريخ العربي الحديث تبرز السنوسيّة نموذجا على هذا النوع من الطرق.

سيرة المؤسّس وأهدافه السياسيّة

ولد السيد محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة أو (الإخوانية) في بلدة (واسطة) بالقرب من مستغانم الجزائرية في ٢٢ ديسمبر١٧٨٧ باتفاق أغلب المصادر [٤]. وقد ذكر المؤرخ الإيطالي ميريانو، أنه أطلق إسم (المحمديّة) على طريقته في البداية، مثلها مثل الوهّابية على أساس السلفيّة السنيّة. وكان في ذلك متشبّعا بمباديء الطريقتين القادريّة والشاذليّة اللتين لقنه إيّاهما أستاذه الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي. وبعد عام١٨٣٧ م، تاريخ وفاة الأستاذ المذكور، أعتبر ذلك انتهاء للطريقة القادريّة؛ فباشر السنوسي الكبير نشر دعوته تحت إسم **السنوسيّة** [٥] وقد شكلت الظروف الموضوعيّة التي أحاطت بسيرته أثناء تنقله لطلب العلم بين موطنه الجزائر وفاس بالمغرب ومكة المكرمة والأزهر بالقاهرة، فكره وتوجّهاته السياسيّة. فمنذ أن شبّ عن الطوق، تبرّم من الإحتلال العثماني لبلاده، فرحل مثل غيره من المثقفين الجزائريّين ذوي الإتجاه المناوىء للتسلط التركي، إلى المغرب الأقصى، وبالتحديد عاصمتها الدينيّة والثقافيّة فاس، حيث لا أثر للإحتلال التركي. وبعد تتلمذه على شيوخ العلم والصوفيّة فيها، نوى العودة إلى الجزائر عام ١٨٣٠، فصادف وقوع الإحتلال الفرنسي لها، فهاجر ميمّما شطر الأراضي المقدّسة. وفي طريقه توقف في القيروان والأغواط ومسعاد. وفي قابس نُسجت حوله رواية تقول بأنه جلب المطر بعد صلاة استرحام، الأمر الذي جلب له حسد المفتي فيها [٦]، وحين وصل الى القاهرة أثار لغطا وجدلا في أروقة الأزهر وهاجمه الشيخ أبوعبد الله عليش على النحو

---

٤ تزوّج السنوسي الكبير عدّة مرّات: الأولى عام ١٨٣٤ من السيّدة أمنا إبنة محمد بن عبد الرحمن لغواط والتي طلقها عام ١٨٣٥ ومنها أنجب إبنا واحدا- والثانية عام ١٨٣٤ في (أبي قبيس) وكانت السيدة خديجة إبنة حامد الحبشيّة التي توفيت بمكة حوالي ١٨٤٦ وقد أنجبت ولدين وأربع بنات توفيوا جميعهم صغارا- والثالثة تزوّجها بالبيضاء في فبراير ١٨٤٣ وهي السيدة فاطمة إبنة أحمد بن فرج الله الفيتوري ومنها أنجب ولدين،وقد توفيت بالجغبوب عام ١٨٩٢ – الرابعة عام ١٨٥١ كانت السيدة فاطمة بنت حسن البسكري التي ولدت بالجغبوب عام ١٨١١ وتوفيت بها أيضا عام ١٨٦١ بعد أن أنجبت ولدا واحدا.

٥ ميريانو مصدر سابق ص ٢٢

٦ مريانو مصدر سابق ص ١٨

الذي مرّ ذكره. كما أن المؤرخ الفرنسي (دو فيريير) وصفه بالقول: " إنه في هذه المرحلة من حياته إتخذ مظهر قائد مدرسة فكريّة، وأدار ظهره للمؤسّسة الدينيّة الرسميّة وكذلك للحكومة المصرية" ويبدو أنه لفرط حماسته السياسيّة، لاحظ اثناء تجواله تفكك الأمّة الإسلامية وفساد وإهمال الإدارة التركيّة وتذمّر الرعايا العرب في الأقطار المذكورة من تصرّفاتها. وقد نقل عنه الكاتب التركي شهرابند زاده أحمد حلمي وصفه - حين كان بفاس- للحالة السائدة : من أن التشاحن والإنقسام شاعا في كلّ الأنحاء، لأنّ العلماء والشيوخ تعوزهم الغيرة الدينيّة من أجل نشر المعرفة وإرشاد الرعيّة [٧] ولهذا تنبّهت السلطات لنشاطه وخشيت أن يتحوّل إلى تحريض سياسي، فأخضعته لمراقبة شديدة مما نغّص عليه الإقامة في تلك الأقطار. وحتى حين حاول التمركز في الأغواط في الجنوب الجزائري لنشر دعوته ، وجدها منطقة مغلقة يصعب اتصالها بالعالم الإسلامي، فتركها متوجّها إلى مكة عبر طرابلس وبنغازي والقاهرة، التي ووجه فيها بالنقد والتهديد كما سبق ذكره. وبعد أن نشر زواياه في الطائف والمدينة وبدر وجده وينبع: "أصبحت طريق القوافل بين مكة والمدينة في أيدي السنوسيين "كما ذكر المؤرخ الايطالي ميريانو في كتابه السابق ذكره. ولاح منذ البداية ميل السنوسي الشديد للخوض في النشاط السياسي، من زاوية المشاركة في (الجهاد) ضدّ الغزو الإستعماري المسيحي حين داهم الجيش الفرنسي موطنه الجزائر. فقد أجمع على هذه الرّغبة لديه المؤرّخون للسنوسيّة مثلما ذكر عبد القادر بن علي [٨] الذى ذكر أن السنوسي الكبير التقى في مكة المكرّمة بالحجيج الجزائريّين. وفي إحدى المرّات كان على رأسهم محي الدّين الحسني وإبنه عبد القادر (الأمير عبد القادر)، الذي قاد الثورة ضد الإستعمار الفرنسي، وقال له: "إني أوصيك بولدنا عبد القادر هذا خيرا، فإنّه ممّن سيذود عن حرمات الإسلام ويرفع راية الجهاد"، كما ذكر أنه أوفد إلى الجزائر في فترات متفاوتة بعض رفاقه وتلاميذه مثل محمد بن صادق ومحمد بن الشفيع وعمر الفضيل بوحوّاء وبوخريص الكزّة، ناقلين ما تيسّر من الأموال والسلاح لدعم الثورة فيها. ولعلّ أسطع دليل على هذا الدّعم الوثيقة التي عثر عليها المؤرّخ أحمد صدقي الدجّاني في دار المحفوظات التاريخيّة بطرابلس ليبيا، والتي نقلها في كتابه (الحركة السنوسية نشأتها

---

٧ نقلا عن مجلة عمر المختار - بنغازي اغسطس / سبتمبر ١٩٤٣ التي نشرت حلقات تحت عنوان (السنوسي في برقة) لسالم بن عامر ملخصا كتاب المؤرخ التركي المذكور تحت اسم (شيم البارق من ديم المهارق) حسبما أورده Dr. CC Adams المستشرق في دراسته مرجع سابق ص ٢ . والحقيقة أن ما نُسب للكاتب التركي هو من تأليف المؤرّخ أحمد النائب الأنصاري ، إذ ورد في كتابه (المنهل العذب) ص ٣٧٦ أنه صنّف كتابا عن حياة الإمام السنوسي وصفه بقوله: "تفصيل علومه ورواياته رضي الله عنه في ثبتنا (شيم البارق..) وهو ثبت محرّر جامع في غاية الضبط والحمد لله وشكرا له".

٨ راجع الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية – دمشق ١٩٦٠

ونموّها في القرن التاسع عشر) [9] وهي عبارة عن خطاب أرسله أحد أتباع السنوسي الكبير من الجزائر الى مدير (غدامس)) الليبية، الواقعة على التخوم الجزائرية والتونسية، سنة ١٢٦٨ هجرية (١٨٥٣ م) وممّا جاء فيه: " وأمّا أنا عبد الله حين قدمت بلاد وارقله ففتح الله علينا بها وصارت محمديّة بعد ما كانت في يد الرومي دمّره الله وخليفة الرومي فيها، سبحان من حكم الضعيف في القويّ وصار القويّ من عبده مخذولا مذموما. لكن من بركة الشريف شيخنا محمد بن علي السنوسي رضي الله عنه ونفعنا وإيّاكم به آمين . وصاروا عربان وارقله وقصورها وقبائل الشعامبة وقصور تغورت وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مصاب، كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدين(..) كلّ يوم في الزيادة، وبعث لنا الرومي دمّره الله في هذه الساعة ثلاثة أمحل(..) تلاقينا معهم وصرنا مثل الشّامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصرا عزيزا وأعاننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستا وثمانين رجلا وقلعنا من الخيل كثيرا والبنادق بلا عدد، والخزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك" [10] وكما ذكر سابقا إلتقى في مكة شيخه **أحمد بن إدريس** الذي كان قد تتلمذ على يديه في فاس واعتنق مفاهيمه الفقهيّة، وخاصّة منها الإجتهاد وعدم التقيّد بمذاهب الأئمّة الأربعة، الأمر الذي أثار عليهما ثائرة المدارس المحافظة في مكة. وكان يسودها المذهب الوهّابي المتشدّد. فاضطرّا إلى التوجّه إلى اليمن المجاور، وبعد الإقامة هناك توفي الشيخ إبن إدريس عام ١٨٣٧ م.

بعدها حاول السنوسي الكبير البقاء في مكة، ولكنه شعر فيها بالمضايقات لأنه اتُهم بالمشاركة مع الشريف عبد المطلب أمير مكة في عصيانه ضدّ السلطة العثمانيّة، حسب رواية البستاني في (دائرة المعارف - مادة السنوسي)، الذي قال عنه : "إنه خاف من الإقامة في مكّة بعد هذه التهمة، فرحل عنها عائدا الى الجبل الأخضر عن طريق مصر ولم تدم إقامته في القاهرة أكثر من ثلاثة اشهر" [11]. ولقد تعرّف خلال هذه الإقامة في القاهرة على حاكم مصر الخديوي عبّاس الذي قابله وأحسن وفادته، وطلب منه بناء زاوية بالقرب من القاهرة في منطقة تُعرف بالشيخ الجيلي (نسبة إلى الصّوفي الشهير). ولكنّ السنوسي فضّل بناء الزاوية في منطقة الكرداسة بالجيزة. ومن هنا انتشر صيته في وادي

---

٩ دار لبنان ١٩٦٧

١٠ وردت هذه الروايات في كتاب الحركة السنوسية في ليبيا- للصلابي ص٥٦ و ٥٧

١١ رواية البستاني نقلها الصلابي مرجع سابق -ص ٨٧. بينما بازامه في ص ١١٣ من (برقة في العهد العثماني الثاني) ينقل هذه الرّواية عن محمّد فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين.

النيل [١٢]، إلا أنه رغم هذا كلّه لم يستصوب البقاء في مصر، ولاشكّ أن العداء الذي أظهره نحوه الفقهاء المتزمّتون كان هو الذي أقلقه فيمّم شطر برقة.

والواقع أن المؤرّخين الأجانب أيضا كانوا يقتفون أثر السنوسي الكبير، ويرصدون تحرّكاته منذ البداية ويدمغون نشاطه وطريقته بالطابع السياسي، استنادا على أن المنطلقات الأساسيّة للطرق الصوفيّة في شمال افريقيا بصفة عامة، واجهت مباشرة التغلغل المسيحي والغزو الفرنسي مواجهة مباشرة، مما جعلها تنجح بسهولة في اجتذاب جموع الأتباع، وتنظيمهم في تلك الجمعيّات الدينيّة. كما ذهب الإيطالي ميريانو في كتابه السابق ذكره [١٣] إلى اعتبار تعاليم السنوسية واجتهاداتها تحمل في ثناياها دلالات سياسيّة، حتى أنه لجأ إلى التخريج لتعليل ذلك فقال: "كيف نفسّر التيسير على المسافرين بالإنقطاع عن الصيام خلال شهر رمضان واختصار الصلوات والمكوث بلا حراك في الحالة الخاصّة المقرّرة، ويقصد بها إزالة الشعور البسيكولوجي بالندم والتوبة. وأخيرا تعظيم جاه وسلطة الرّئيس؟ إن لم تكن النيّة في تقوية وتيسير التشيّع وراء الإخوان عبر الصحراء ونُصرتهم، وبالتالي إضفاء طابع الدولة المهيمن على الطريقة ". وهذا الإستنباط يتفق مع تحليلات المؤرّخين الفرنسيين أمثال (ديبونت وكابولاني) اللذين حاولا تشويه سمعة الدعوة السنوسيّة وإلصاق التُهم بها. ومن ضمن ذلك قولهما: "في تلك الفترة التي تشهد الإنتشار السريع للمدنية المسيحية، أخذت الإخوانيّات الدينيّة الموقع الأمامي في التصدّي لها، موقظة النزعة الإستقلاليّة ومعزّزة الأواصر الروحيّة التي تربط بين أتباعها، كما أن مبادئها الدوغماتيّة والتصوّفية من شأنها خلق وشحذ الهمم السياسيّة، وشعائرها ما فتئت تدعو الى تهديم الإصلاحات التي اقتضتها الأوضاع الجديدة؛ فالمبدآن الرئيسيان للسنوسيّة هما: الإمعان في شنّ الحروب ضدّ المسيحيّين في أيّ مكان يتواجدون فيه وتحت أيّة ظروف، والمقاومة المنتظمة المتواصلة لأيّة حركة تجديد" [١٤] اما دوفيرييه الذي سبقت الإشارة إليه، فهو يدّعي أن من بين تعاليم السنوسية: "تحريم التحدّث إلى شخص مسيحي أو يهودي أو تحيّته أو المتاجرة معه أو العمل في خدمته. وإذا لم يدفع اليهودي الجزية للمسلمين، وبكلمة اخرى إذا ما أراد التمتّع باستقلاله السياسي، صار عدوّا يُجيز القانون بل ويحضّ على

---

١٢ وردت هذه المعلومة عن مقابلة الإمام للخديوي في وثيقة رسميّة عثرنا عليها في أرشيف الخارجيّة الإيطاليّة مؤرّخة في ١٠ نوفمبر ١٩١٣ وهي عبارة عن ترجمة لتقرير نشرته مجلة (العلم) القاهريّة عن سيرة السّنوسي الكبير. كما ذكرها بازامة في نفس المرجع السّابق في ص ١١٤ مُضيفا أنه مكث عاما هناك.

١٣ ص ٣٦ - ٣٧

14 Depont et Coppolani Les Confreries religieuses musulmanes , Alger Jourdan ,1897

نهب أمواله وقتله أينما كان ومهما كانوا كلما سنحت الفرصة بذلك! " وغني عن القول إن هذه الإدّعاءات روّجها المؤرّخون والرحّالة الفرنسيون تحديدا، في فترة بدأ الغزو الفرنسي لبلدان شمال أفريقيا الإسلاميّة، وستنكشف حقيقة زيفها عندما يأتي الحديث عنها لاحقا في هذا الفصل [١٥]. ورغم أحكامه التعسّفيّة التي بثّها في كتابه وتهجّماته التي أوحت بها النوايا الإستعماريّة التي كان يمثّلها، إلا أنه جاء جامعا في تفصيلاته وتحليلاته. ونزعم بأنه كان المرجع الأوّل والرئيسي لما جاء بعده من دراسات عن السنوسيّة، خاصة من المؤرّخين الإيطاليين، لكونه من أوائل الرحّالة هناك، ولاعتماده على المشاهدة الحيّة. وواضح أن هذه الكتابات والآراء العدائيّة ضد السنوسيّة، كانت مبيّتة ضمن المخطّط لتبرير السيطرة الاستعماريّة وترسيخها؛ فنرى وزير الخارجية الفرنسي هانوتو عام ١٩٠٠ ، وقد اجتاحه القلق من خطر توغّل الطرق الصوفيّة في مناطق نفوذ دولته؛ فأراد الطعن فيها من منفذ التنديد بتأخّر المسلمين بسبب تمسّكهم بدينهم، إذ يقول: "إن العالم الأسلامي منقسم الى طوائف وطرائق لا عداد لها، ينخرط في سلكها الألوف من رعايانا المسلمين. ولكن ليس لها في الغالب مراكز و لا زوايا بالأراضي الداخلة في دائرة نفوذنا، وغاية الأمر أن العاملين في هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون - بلا انقطاع ولا توان - مستعمراتنا الأفريقيّة، فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ويُحسنون وفادتهم، ويُكرمون مثواهم، حتى أن الفقير منهم لا يرى في إكرامه لهم أقلّ من أن ينحر لهم شاة. هذا عدا ما يجمعه لهم من صدقات ذوي البرّ والإحسان، أو من المرتّبات الماليّة السنويّة، التي يبلغ ما يدفعه أهالي الجزائر وحدهم منها، ثمانية ملايين من الفرنكات كلّ عام. وهذا مما يستوجب العجب والدّهشة، لأن مقدار ما نجبيه من الضّرائب كلّ سنة من أهالي الجزائر، لايتجاوز ضعف هذا المبلغ. ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد أعضاؤه إلى السكون، وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن ما يرام. وما ذلك إلا لأن الرابطة التي تربط بعضهم ببعض قد اعتراها الوهن، ولأن الفوضى التي أصابت الإسلام الأفريقي قد

---

١٥ يعتبر (دو فيريير) أبرز نموذج للرحّالة الذين استخدمتهم الدول الأوربيّة لخدمة أغراضها الإستعماريّة، فبعد أن استفادت السلطات الفرنسيّة من تجواله في الجزائر ودول الصحراء المتاخمة في الفترة من ١٨٥٩ الى ١٨٦٢، وهو في ربعان الشباب – إذ كان عمره ١٩عاما –أوفدته الى الصحراء الليبيّة لاستغلال تحقيقاته في تمدّدها الإستعماري عبر تشاد وما جاورها وبفضل هذه العلاقات حصل على دعم القنصل الفرنسي في طرابلس (ب.أ. بوتا) الذي قدّمه الى واليها محمود باشا. وهذا بدوره سلّمه رسائل توصية لسلطات الدواخل الصحراويّة، كما مكّنه من ربط علاقة شخصيّة مع زعيم طوارق (ازقار) الحاج محمد إيخوخن. وقد اشتهرت تحقيقاته الجغرافيّة بعد موته،إذ انتحر في سيفير عام ١٨٩٢ - ينظر الملخّص عن حياته ومؤلفاته في كتاب (الرحّالة والكشف الجغرافي في ليبيا) تأليف أيتيليو موري تعريب خليفة محمد التليسي – مكتبة الفرجاني ، طرابلس ١٩٧١ ومن المستغرب أن المؤلف –في استعراض مؤلفات الرحّالة الفرنسي - لم يذكر شيئا عن كتابه الذي سلفت الإشارة اليه. وقد دوّن فيه سيرة الإمام مؤسّس السنوسيّة ، ومعتقداتها وهياكل تنظيمها وأسلوب عملها من خلال تسجيلاته الدقيقة، وما عايشه وشاهده شخصيّا لدى السنوسيّين في زواياهم.

أخذت نصيبها منهم". وكان الوزير الفرنسي في هذا القول، كمن يعبّر عن الإرتياح بعد قمع الثورة الجزائريّة والانتفاضات التي أعقبتها، والتي كانت الطرق الصوفيّة من بين العوامل المحرّكة لها والحاملة للوائها، كما سيتبيّن لاحقا. بيد أنه يستشعر مجدّدا خطر هذه التنظيمات الوطنيّة المناوئة للإستعمار والتي تلقعت بثياب التديّن الصوفي، وعلى رأسها السنوسيّة، فيقول: "ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدّة العصبيّة منها مبلغا عظيما، لأنها مؤسّسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين، وعلى كراهيّة المدنيّة الحاضرة، فقد أسّس الشيخ السنوسي في جهة ليست بعيدة عن الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر، مذهبا خطيرا له أشياع وأنصار. ومقر هذا الشيخ (يعني به السيد المهدي الذي تولى زعامة الطريقة بعد وفاة والده السنوسي الكبير) بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائما بها هيكل الإله آمون (يقصد سيوه، وقد هاجر أولاده إلى الكفرة. ومن مذهبهم التشديد في التمسّك بالقواعد الدينيّة، وقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدّولة العليّة بسبب ما بينها وبين الدّول المسيحيّة من العلاقات، ولكن يظهر أن أخلاقهم الشديدة (يعني المتشدّدة) قد تلطفت، فتقرّبوا أخيرا من الدولة العليّة. غير أن هذا لم يمنعهم من طرح حبائل الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقيا الجنوبية، ولم يكن الأمر مقصورا على وسط القارّة الأفريقيّة، فإنه توجد بالآستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفيّة ومؤامرة سرّيّة تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب. ويُخشى أن تفترسنا إذا أغمضنا الطرف!" [١٦].

فإذا ما علمنا أن هذه التصريحات نشرت عام - ١٩٠٠ وهي الفترة التي كان الكفاح الجهادي بقيادة السنوسيّة مستعرا ضدّ القوّات الفرنسيّة، ليعرقل إحتلالها لتشاد وتوغلها في (الهنترلاند) الليبي[١٧] أدركنا الهلع الذي كان يتملك أساطين الإستعمار من تلك الحركات

---

١٦ محمد عبده –مرجع سابق ص ٦١ - ٦٢ وهانوتو صاحب هذا التحليل المتحامل هو Albert Auguste Gabriel Hanotaux –(1835-1944) أكاديمي وسياسي ومؤرّخ فرنسي غزير الإنتاج . ترقى في السلك الدبلوماسي إلى أن أصبح وزيرا للخارجيّة في الفترة من ١٨٩٤ الى ١٨٩٨ وقد شهد عهده التوسّع الفرنسي الإستعماري في افريقيا إلى أن حدث التصادم مع المستعمرين الإنجليز ووُقعت اتفاقيّة فاشوده التي سيأتي ذكرها.

١٧ وهي كلمة المانيّة تعني (الأراضي الخلفيّة)، وأصبحت إصطلاحا إستعمله الأتراك في نهاية القرن التاسع عشر وتبنّاها القانونيّون الفرنسيّون في بحوثهم المستفيضة عن مسألة تخطيط الحدود الفرنكو – تركي للمناطق الصحراويّة. ثمّ جاء البروفيسور Rouard de Card من كليّة الحقوق بجامعة تولوز عام ١٩١٠ ووضع نظريّة في القانون الدّولي تقول إن إتفاقيّة ١٨٩٠ تجيز لفرنسا أن تمدّ حدودها شرقا إلى خطّ يتجاوز أقصى جنوب فزّان حتى يصل إلى (بارّواه) على بحيرة تشاد،أمّا بالنسبة لاتفاق ١٨٩٩ فهويعدّل إتفاق ١٨٩٠ ويوسّع من خطّ منطقة النفوذ الفرنسي إلى أن ينعطف واصلا إلى مدار السّرطان على خطّ طول ١٥ وفي رسالة الإحتجاج التي قدّمتها الأستانة ضدّ الإتفاقيتين، ورُفضت من الفرنسيين بحجّة أنها رسمت خطّا للهينترلاند التركي غير

الوطنيّة، وهو ما سيأتي تفصيله في الأبواب القادمة من هذا الكتاب. مع ضرورة ملاحظة أن هذه التصريحات جاءت في سياق تحليل طويل كتبه الوزير الفرنسي عن الفروق التي تقسّم بين الإسلام والمسيحيّة، مزكيا بالطبع ديانة قومه وماتنعم به بلدان أوروبّا من أنظمة علمانيّة ينفصل فيها الدّين عن الحكم، بعكس فلسفة الحكم الإسلامي التي لا تفصل الدين عن السلطان. لكنه رغم محاولته صبغ كلامه بصبغة التبشير الحضاري التمديني، إلا أن مقاصد التوسّع والإستحواذ الأستعماريين تنضح منه بما لا يحتاج إلى توضيح. ولسنا هنا في معرض الجدال مع المسئول الفرنسي، فقد تكفّل الإمام محمد عبده بالردّ عليه وعلى الكاتب الفرنسي الآخر رينان [١٨]

المحتوى الفكري والفقهي للعقيدة السنوسية

ليس هذا مجال التعمّق في تحليل الأصول الفقهية للسنوسية وسرد تاريخها بالتفصيل، ففي هذا يمكن الرجوع إلى ما كتبه عنها مؤرّخون ليبيّون وعرب وأجانب [١٩].

مقبول دبلوماسيّا، لأنه يعالج حدودا في منطقة ليست تابعة للإمبراطوريّة العثمانيّة، ولكنّ إتفق بشأنها بين فرنسا وبريطانيا ثمّ ألمانيا التي كانت تستعمر الكاميرون فيما يتعلّق بضفّتها على بحيرة تشاد.

١٨ هو الكاتب الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان ١٨٢٣ - ١٨٩٣، اشتهر بدراساته عن اللاّهوت المسيحي واللغات الساميّة وكتابه (إبن رشد والرشديّة) وكتابه (تاريخ شعب إسرائيل) ثم تحوّل الى الكتابات السياسية، وكان نقده لاذعا للأديان بصفة عامّة والمسيحيّة بصفة خاصّة حيث اعتبر الدّين –مثل الفيلسوف كونت –مرحلة في تطوّر البشريّة ستُفضي الى مرحلة العلم. وانه لا رابطة منطقية بين الدّين والفضيلة - وأن الدّين لا يتجاوز كونه مادة للمعرفة وذكريات من أيّام الطفولة !.وقد دحض الإمام محمد عبده حجج هانوتو ورينان في كتابه (الإسلام دين العلم والمدنيّة) المشار اليه.

وبالأضافة الى المؤرّخين الأوربيّين الذين أشرنا اليهم، ثمّة مؤرّخون عرب نوّهوا من جانبهم بما أتسمت به دعوة السنوسي الكبير من اتّجاهات سياسيّة تنامت واتضحت من خلال تحرّكاته ونشاطه العمليّ، فعبّاس محمود العقاد ذكر في كتابه (الإسلام في القرن العشرين) ص : ١٣٢: "أن الشيخ السنوسي كان بخلاف الغالب على مشايخ الطرق خبيرا بأحوال السياسة العالميّة، فوقر في ذهنه أن النابولتان -أي الأيطاليين- مغيرون لا محالة على برقة في يوم قريب، فأوغل بمقامه إلى واحة الكفرة على طريق السودان، ليشرف من ثمّ على تعليم أهل الصحراء جنوبا وشمالا وشرقا وغربا، ويهيء في جوف الصحراء ملاذا لمن تُقصيهم غارات المستعمرين على السواحل ومدن الحضارة" ١٨٩٠١٩ ويوسّع من خط منطقة النفوذ الفرنسي إلى أن ينعطف واصلا إلى مدار السّرطان على خطّ طول ١٥ وفي رسالة الإحتجاج التي قدّمتها الآستانة ضدّ الإتفاقيتين، ورُفضت من الفرنسيين بحجّة أنها رسمت خطّا للهينترلاند التركي غير مقبول دبلوماسيّا، لأنه يعالج حدودا في منطقة ليست تابعة للإمبراطوريّة العثمانيّة، ولكنّ إتفق بشأنها بين فرنسا وبريطانيا ثمّ ألمانيا التي كانت تستعمر الكاميرون فيما يتعلّق بضفّتها على بحيرة تشاد.

إسرائيل) ثم تحوّل الى الكتابات السياسية، وكان نقده لاذعا للأديان بصفة عامّة والمسيحيّة بصفة خاصّة حيث اعتبر الدّين –مثل الفيلسوف كونت[1]-

أمّا بالنسبة لهذه الدراسة فبالإضافة إلى قراءتنا لأغلب ماكتب عنها بأقلام المؤرّخين بالعربية، فقد توخّينا ان نعتمد أيضا في هذا التحليل على الوثائق الرسمية الإيطالية، قبل وأثناء وبعد فترة الإستعمار الإيطالي للبلاد الليبية، وأن نستشهد بالمراجع الأوربية القديمة، وخاصة الفرنسية والإيطالية والإنجليزية منها لسبب رئيسي وهو: أن المؤرخين باللّغات المذكورة خاضت دولهم صدامات ومعارك دامية ضدّ السنوسية لتوليها قيادة الحركة الوطنيّة الليبيّة التي بدأ تكوّنها منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، مترافقة مع نشوء الطريقة السنوسية وتناميها. وفي هذا الصدام مع قوى الغزو الاستعماري تلك، اكتسبت

---

١٩ قبل بداية الغزو الإيطالي، ظهرت دراسات أوربيّة عن السنوسيّة ومؤسّسها ، أغلبها فرنسيّة بفعل الإستعمار الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ ، وقد اعتمد عليها بقيّة المؤرخين الأوربيين وخاصة الأيطاليين منهم ويمكن إجمال أقدمها كما يلي : La confri'erie' Musulmane De Sidi M.uhammad Essunusi et son domaine geographique en l'anne'e1300 del'He'gira 1883 de la notre ere. Paris – Socie'te' de geographie , 1884 بقلم Henri Duverier وترجمته (الإخوانية الإسلاميّة لسيدي محمد بن السنوسي، ومجال نفوذه الجغرافي ، في ١٨٨٣) وسيأتي الحديث عنه لأهميّته) ؛ (الحجج التي اعتمد عليها الشيخ السنوسي في التصوّف) بقلم Colas (دراسة في أخوانيّة الشيخ السنوسي) بقلم Pilard في أرشيف الإدارة الإستعماريّة بالجزائر، اقتبس منها Louis Rinn في كتابه (المرابطون والإخوان) إصدار دار جوردان (الجزائر ١٨٨٤) ؛ (الإخوانيات الدينيّة الإسلاميّة من تأليف Depont Cappolani إصدار جوردان بالجزائر ١٨٩٧ ؛(الروابط الدينيّة عند العرب وفتح أفريقيا الشماليّة) بقلم: D'estaournelles De Constant . من إصدار ميزون نوف و لوكليرك (باريس ١٨٨٧ م) ؛ رحلة الحشائشي المعروفة بين المراجع العربيّة . وقد ترجمها Lasram + V. Serres من إصدار شالامير(باريس١٩١٢ .) وقد ذكر المؤرّخ الإيطالي)فرنشيسكو ميريانو أن الحشائشي زعم في كتابه أن أية رواية أخرى مخالفة لما ذكره عن سيرة السنوسي، ينبغي اعتبارها مضلّلة وموحى بها من ذوي النوايا السيئة. وعلّق ماريانو أن هذا القول دليل على أن رواية الحشائشي ملفقة وغير دقيقة ، وأراد أن يغمز من قناته مشككا في معلوماته، حين أضاف: ان الحشائشي كان مشرفا على مكتبة المسجد الكبير – يقصد الزيتونة – بتونس وحين سمح له السنوسيّون بالعبور كان يلقب بالشاعر ! وقد جرت رحلته عام ١٨٩٦، وكانت ذات صلة وثيقة برحلة الماركيز De More's الذي اغتيل من قبل الطوارق سنة ١٩٠٣ . أما بعد الغزو الإستعماري الإيطالي لليبيا فقد صدرت دراسات (الإسلام والإخوانيّة السنوسيّة) بقلم Cap. Bourbon Del Monte Santa Maria والذي كان يرأس أركان القوّات المسلحة – من إصدار شيتا ديل كاستيللو بروما ١٩١٢ ؛ الفصل المتعلّق بالسنوسيّة من كتاب الرحّالة الألماني جيرهارد رولفس (الرحلة من طرابلس حتى واحة الكفرة) والذي ترجمه جويدو كورا،من إصدار فالاردي (ميلانو ١٩١٣) – (المشكل الليبي والسنوسيّة) بقلم القاضي سانتينو أكوافيتا من إصدار أثينايوم (١٩١٧– سجلّ الهيئات الحكوميّة) ترجمة بيلارد وقد ورد فيه ما رواه السنوسي الكبير عن قائمة أساتذته الذين تلقى العلم عليهم في مراكش - أفريقيا الفرنسيّة بقلم J De. Ladereit La charrie're يونيه ١٩٢٥ .وقد حاول فيه استنتاج علاقة بين السنوسيّة وثورة الريف .

الطريقة مضمون وطابع حركة سياسية هدفت إلى التحرّر الوطني في مسيرتها مع نشرها لرسالتها، ووجدت نفسها من أجل ذلك تتحدّى القوى الأجنبية. وكان عليها أن تقاومها بالسلاح كلما اعترضت طريقها أو حاولت إغتصاب مصالحها الإقتصادية والتجارية، أو عرقلتها خلال امتدادها الجغرافي الواسع. وبذلك لا يتطرّق الشك كثيرا إلى صدق الروايات والتحليلات التي دوّنها عنها هؤلاء المؤرّخون الأوربيون. إذ ليس من مصلحة مخطّطات دولهم إظهار الإنصاف او العطف علي الحركة، والسبب الثاني أن أغلبهم كانوا شهود عيان لبزوغ ونموّ السنوسيّة دعوة دينيّة وتنظيما إجتماعيا ومؤسّسة سياسيّة عايشوها، فرووا تجربتهم عنها بدقة كاملة، وإن كانوا يضمرون العداء لها. وكثيرا ما كان هذا العداء يرشح من ثنايا كتابات أولئك المؤرّخين وتقارير المسؤولين في بلدانهم،كما سنرى في سياق التحليل.

والجدير بالذكر أن معتقدات ومفاهيم السنوسيّة تجلّت في المؤلفات العديدة التي دوّنها مؤسّس الطريقة والتي تجاوز عددها الخمسين عند بعض المستشرقين، ولكن لم يتبقّ منها إلاّ القليل، بفعل تدمير مكتبة الكفرة عقب الإحتلال الإيطالي لها، وفقدان البعض منها نتيجة لتنقلات الأئمّة وعدم استقرارهم طويلا بسبب المواجهات مع الغزاة الكثر [٢٠] والحقيقة أن السنوسية حين نشأت انتهجت خطا متفتحا لا يتصادم من الناحية الفقهيّه مع بقيّة الفرق والطرق الأخرى العديدة التي سبقتها أو كانت معاصرة لها، بل ذهبت إلى حدّ الدعوة إلى توحيد بعضها البعض. ويتجلى ذلك في أن السنوسي الكبير عدّد ستين طريقة صوفية معتبرا إيّاها شقيقات للسنوسية، يمكن أن ينضمّ إليها تلامذته ومريدوه دون ان يخلّ ذلك بولائهم لطريقته، كما أنه وصف سلوك وأحكام أربعين منها مبيّنا العناصر المشتركة التي تجمعها مع السنوسية، ولو أنه في في كتابه (المسائل العشر) انتقد بعضها بقوله: "ومنها ما كثر به تبجّح كثير من بعض المتنسّكين، من دخلاء المتصوّفة وغلاة المتورّعين من الإعجاب بأعمالهم والتمدّح بأحوالهم وكونهم مخصوصين بينابيع الإمداد ومواهب الكرامة، لا يبالون بمن عداهم ولو كانوا على محض الإستقامة ..."، كما أنه في كتابه (الدرر السنيّة في أخبار السلالة الإدريسيّة) ذمّ الفرق الإسلاميّة المعروفة بالمبتدعة، إذ

---

٢٠ ورد العدد ٥٠ كتابا في دراسة كتبها باحث نرويجي معاصر هو (كنوت فيكور) من (كليّة الدراسات التاريخيّة والفلسفيّة) بجامعة بيرجين ونُشرت بتاريخ ٢٠٠٤/٧/٢٥، كما أن الصلابي في كتابه (الجزء الأول) ص ١٩٩ استعرض تفاوت عدد المؤلفات بين الدارسين والذي لم يتعدّ 35 عند أحدهم. وفي ضوء ذلك حصر ثمانية منها تمّ طبعها وهي باختصار: (بغية المقاصد في خلاصة الراصد) (السلسبيل المعين- هامش للكتاب الأول) (المنهل الرويّ الرائق) (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن) (الدرر السنيّة في أخبار السلالة الإدريسيّة (رسالة المسلسلات العشر في الأحاديث النبويّة (رسالة موطأ الإمام مالك) (شفاء الصدر بارى – أي عسل المسائل العشر).

قال: "ذكر أهل العلم من فضائل المغرب أن الله حماه من فرق المبتدعة كالمعتزلة والرافضة والجبريّة."

أمّا السيد أحمد الشريف الذي سيتولّى فيما بعد زعامة الطريقة، فقد كان أوّل المفسّرين لتعاليم جدّه واستاذه المؤسّس [٢١]، حتى يمكن اعتباره الداعية لأديولوجيتها حسب الأصطلاح المعاصر إذ شرح في مقدمة كتابه (الانوار القدسية في مقدّمة الطريقة السنوسيّة) هذه الاسس. وملخّصها أن الأتباع ينقسمون إلى فريقين: الأوّل من الذين يعتنقون الإشراقيّة، ويعني بهم أولئك الذين يهتدون بالنور القدسي بواسطة الرياضة الروحيّة. والفريق الثاني من الذين يعتنقون البرهانيّة ، وهم يعتمدون الأصول ويمارسون التطبيقات العمليّة باستخدام حاسّة الذكاء البشري. ثم شرح صفات أعضاء الفريق الأوّل بأنهم من يتلقون ألإلهام والمعارف الروحانية الغنوصيّة (هكذا وردت في كتابه نقلا عن أصلها gnosis وقد شرحناها عند الحديث عن التصوّف). وكذلك من يتلقون الأسرار بفعل القدرة الإلهيّة دون الحاجة إلى ان يُلقنوا العلم . "إذ أن تقواك إليه تعالى هي التي تعلمك " كما قال. وهكذا نلاحظ ان هذه المفاهيم الصوفية، رغم استعمالها للمصطلحات الفلسفية في التصوّف كالغنوصية والأشراقية، إلاّ انها تبسّطها دون ان تستكنه أعماقها وتُسهب في تفسيراتها وقد يكون ذلك راجعا؛ إمّا إلى القصور عن الغوص واستيعاب تلك الأعماق، وهو الأرجح لدينا، حيث سنلاحظ في أدبيّات السنوسية خلوّها من معاني ومضامين التصوّف الفلسفي الذي أوجزنا نشأته وتطوّر مدارسه. كما يلاحظ في مؤلفات السنوسي الكبير الإكثار من ذكر المراجع والأسانيد والكتب التي قال إنه استوعبها، والأئمّة والفقهاء الذين أخذ عنهم، كما في كتابه (المنهل الرويّ الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق). وفي كتابه (الدرر السنيّة في أخبار السلالة الإدريسيّة) سرد تاريخ الإمارات التي قامت في بلدان المغرب مشيرا الى المصادر التي ينبغي الإطلاع عليها لمعرفة هذا التاريخ، دون أي

---

٢١ في الحقيقة أنه تلقى هذه التعاليم على أيدي اساتذته في الجغبوب وهم :والده السيّد محمّد الشريف وعمّه الإمام المهدي والعالمان السيّد عمران بن بركة والسيّد أحمد عبد القادر الشهير بالريفي. وللسيّد أحمد الشريف مؤلفات أخرى يبدو أنها ضاعت ومنها (الفيوضات الربّانيّة في إجازة الطريقة السنوسيّة الأحمديّة الإدريسيّة).وهو رسالة صغيرة الحجم ذكر فيها أسانيده في القرآن والصحاح الستّة، واسانيد الشاذليّة والنقشبنديّة وغيرهما من الأحزاب والأوراد،كما ذكر فيها رواياته عن والده وعمّه وشيخهما أحمد الريفي إضافة الى مراجع الإمام المؤسّس. وهناك مؤلفه (فيوض المواهب الرحمانيّة) وهو مجلد ضخم "فصّل فيه أحوال سلفه ومعارفهم وأورادهم وتراجم أصحابهم على ثلاث طبقات وهم عنده نحو ثلاثمائة". كما ألف (الدرّ الفريد الوهّاج في الرحلة من الجغبوب الى التاج) والذي ضاع أيضا، ويبدو من عنوانه أنه شهادة حيّة لما اعترض رحلة عمّه شيخ الطريقة المهدي الذي نقل مركزها من الجغبوب الى الكفرة. (أنظرفهرس الفهارس والإثبات) للكتّاني ص304 من (ليبيا في كتب التاريخ والسير) مرجع سابق.

تحليل منه للوقائع أو إيراد وجهات نظره حولها، يضاف الى ذلك تعقد أسلوبه وانطواؤه على مفردات غريبة تلتبس بها المعاني، وهو ما اتبعه في بقيّة مؤلفاته ذات العناوين الجذّابة. وقد يُقال هنا إن قطبي السنوسية (أي السنوسي الكبير وأحمد الشريف) كانا في ذلك يكرّران أسلوب الفقهاء في ذلك العصر وخاصة في المدرسة المغربيّة، وأن همّهما كان التركيز على كسب المريدين والأتباع بحسب مستوى الفهم المتواضع السائد في البيئة المحلية شبه الأمّية، وهذا يبرهن على البعدين الإجتماعي والسياسي في الدعوة السنوسية، أكثر من المقاصد الروحانيّة أو الفلسفيّة.

أمّا الفريق الثاني من الأتباع فيصفه أحمد الشريف بانه؛من أطاع الأوامر واجتنب المعاصي واكتسب العلوم الأربعة وهي : علم الأصول والصفات الإلهية،علم الفقه،علم الحديث،والعلم المساعد أي المتعلق بقواعد اللغة العربية،وما بها من نحو وبلاغة (كما جاءت عند الشاذلي والزرّوق) باعتبارها الوسيلة التي تيسّر إستيعاب العلوم الثلاثة الأولى. ثم أضاف أن تعاليم السنوسي الكبير تجمع بين هذين الفرعين (الإشراقية) و(البرهانية) .وعدّد بعد ذلك الواجبات التي قرّرها الشيخ المؤسّس على من يتحلى بالبرهانية وهي : حفظ كتب الحديث النبويّة الشهيرة الثلاثة (صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك وبلوغ المرام) وفي الفقه : الرسالة لإبن أبي زيد القيرواني. وفي (الصّوفيّة) : المباحث السّبعة،مفصّلا هذه المباحث ابتداء (بالرّائيّة) إلى (فصوص الحكم) للصوفي الشهير محي الدين إبن عربي الذي شرحنا مدرسته في الصفحات السابقة،وهنا لا نخال- مرّة أخرى- توفّر القدرة الذّهنيّة لدى المريدين والأتباع –خارج حلقة شيوخ وقادة الطّريقة- على استيعاب مفاهيم وفلسفة إبن عربي المتسمة بالتعقيد لكل من يقرأها. أمّا كتاب فصوص الحكم المذكور فقد أفرد فيه إبن عربي":فصلا لكل رسول من سبعة وعشرين رسولا،أوّلهم آدم وآخرهم محمد (ص)،وعقد الفصل السادس والعشرين لسلف محمد المحوط بالغموض خالد بن سنان العبسي،وذكر في هذه الفصول تعليماته الحكميّة الصوفية الخاصة،رابطا إيّاها بالأنظار الخيالية في دلالة كل رسول. وقد أعطاه النبي هذا الكتاب في العشر الأواخر من محرّم سنة **627** هجرية -أي في السنة الخامسة والستين من سني الحياة – إذ رأى النبي (ص) وبيده كتاب،وقال له : "هذا كتاب فصوص الحكم،وأمر إبن عربي أن يأخذه ويخرج به إلى الناس لينتفعوا به" [٢٢] ووصف السيد أحمد الشريف ماهيّة الإشراقيّة كما سنّها النبي في طاعته تعالى والصلوات له "أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه،فهو يراك " وهذا ترديد لما ذكره إبن عربي في الفصوص،وخلص إلى القول بان هذا كفيل

٢٢ جولد تزيهر في مذاهب التفسير الأسلامي –مرجع سابق ص 243

بتحقيق الفوز الكامل،إلا أنه حذّر المنتسبين الى الطريقة في الوقت نفسه من مغبّة الغرور والنفاق اثناء -ممارستهم للطقوس الصوفية،ولا سبيل أمامهم للتخلص من هذه العيوب إلا بمساعدة الشيخ او أحد (الاخوان)؛إذ أن الشيخ هو الوسيط بين التابع وخالقهما،وبدونه يقع في الضلالة [٢٣] وهو هنا مرّة أخرى يستلهم قول إبن عربي في رسالته (الحكم الألهية) :"الشيخ باب المكالمة بين المريدين والله " وكانت مظاهر إعتقاد أتباع السنوسي متمثلة في الإستغاثة بذكر إسم الشيخ وقت الملمّات،والإلتجاء إليه وتقبيل يديه أو لثم جلبابه طلبا للبركة. ومن هنا جاء مصدر الولاء له ولطريقته والإنصياع لأوامره. كما أن السنوسية فيما يتعلق ببقيّة الطقوس والعادات لا تختلف عن الطرق والاخوانيّات الأخرى،خاصة في الإكثار من (الذكر). ولو أنها حاولت ان تنتهج أسلوبا يميّزها عن غيرها؛ففي كتاب (الأنوار القدسيّة) المذكور وصف ضاف لأنواع الدعاء ومدارجه المسمّاة بالأحزاب،جمع حزب، وهو ما يُتلى في (الحضرة) بعد صلاة الجمعة من أدعية جماعيّة،وتُسمّى أيضا أوردة،جمع ورد،كما ذكرها الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين)،والإستغفار والتكبير اثناء أداء الصلاة. وقد نقل (آدامس) في دراسته الموماً إليها عن المستشرق الكبير (مارجليوت) قوله إن السنوسي،بعكس بقيّة الطرق الأخرى التي تنشد الإتحاد مع الذات ألإلهيّة للحصول على النشوة، فالسنوسية تركز على الإتصال بالنبي عن طريق الذكر. أي أنها نأت بنفسها عن الخوض في مسائل التصوّف الفلسفي المعقدة السالف ذكرها.

السنوسيّة ومفاهيم الإجتهاد

وليس هنا مجال الاسهاب في ايراد التوافق أو الاختلاف بين السنوسية وبقية الطرق الصوفيّة الأخرى في المفاهيم الرّوحيّة وطقوس العبادة والتعاليم التي تبنّاها كلّ منها. ولكن المهمّ هو التطرّق إلى القضايا الفقهيّة، لأنها تعكس فلسفتها أو أيديولوجيّتها، وتضبط أسلوب تصرّفاتها وتعاملها مع أتباعها، ممّا يمسّ صميم وجودها، ويصوّر حقيقة هويّتها. ويعنينا هنا على وجه التحديد مفهوم الاجتهاد الذي استنّه مؤسّس الطريقة. فالإجتهاد يُعتبر عند المسلمين قضيّة شائكة ما تزال تثير سجالا وجدلا لا نهاية لهما بحكم المنطق. ومفهومه العام هو إجهاد النفس في التفكير العميق والبحث المسهب لاستخلاص رأي في مسألة من المسائل، والوصول فيها إلى حُكم. والمجتهدون الأوائل عند السنّة هم الإئمّة الأربعة لمذاهب المالكيّة والشافعيّة والحنبليّة والحنفيّة. وكان لهم السّبق في إرساء مباديء وأساليب الإجتهاد من النصّ القرآني والأحاديث الصحيحة، التي توفر حولها الإتفاق،

---

٢٣ The Sanusiya Order c.c. Adams –p.24-25 Hand book on Cyeanaica سلسلة الدراسات الشرقية والأفريقية، لندن ١٩٤٥

ورجحان الصدق في الرواية أي **الإجماع**، وهو في حدّ ذاته مثار خلاف وتباين طويلين: فثمة من يعتبره إجماع الصحابة، وآخرون يقولون بإجماع أهل المدينة أثناء حقبة الخلفاء الرّاشدين، أي عصر الدولة التي أسّسها النبيّ، ومن قائل إنه إجماع جميع المسلمين، وهو مستحيل. كما أن الأئمّة استنّوا (تقنيات) لإصدار الأحكام والفتاوى في غيبة النص القرآني أو الحديث الموثّق أو الإجماع، **كالقياس**، وهو تطبيق للآية الكريمة: (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) "قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ النساء: ٨٣ **والإستحسان**، وهو تفضيل حكم معيّن، **والإستصلاح**، وهو تقدير المصلحة الخاصة والمرسلة، **والإستصواب** الخ. ثم انفتح الطريق بعدهم لنشوء المدارس الفقهيّة الخاصة بكل مذهب من مذاهبهم. ونظرا إلى هذه التعدّدية توسّعت دوائر الإجتهاد واغتنت مضامينه عبر تطور الظروف التاريخية ونموّ المجتمعات الإسلامية، وغدت الفتاوى التي تصدر حول أيّة مسالة بمثابة (وجهة نظر) يبديها المفتي،أو شرحا وتفسيرا يجيب به على ما يوجّه اليه من اسئلة. وكان من طبيعة الأمور ان تنفجّر الخلافات بين هذه المذاهب وأصحابها هادئة ليّنة غالبا، أوعنيفة ساخنة، مثلما جرى بين الأئمّة الشافعي وإبن حنبل وأبي حنيفة حول مفهوم القياس في الإجتهاد وتطبيقه على المصلحة، وبين إبن حنبل والمعتزلة حول قضية (خلق القرآن). وكان الخليفة المأمون، وبعده المعتصم، قد ناظرا الإمام إبن حنبل في هذه القضيّة الفلسفية الشائكة، مسنودا من علماء المعتزلة الذين كانوا يقولون بان الله ليس بمتكلّم، وإنما يخلق الكلام كما يخلق كل شيء، وأنه منزّه عن الصفات جميعها بما في ذلك صفة التكلّم. وتأسيسا على ذلك فالقرآن مخلوق. ومن هذا نشأ علم الكلام المعروف في الدراسات الإسلاميّة. وقد اعتنق الخليفة المأمون هذه النظرية وبالغ في التحمّس لها، حتى انه أخذ في فرضها على الولاة والعلماء فرضا. ومن يخالف ذلك تقطع أرزاقه ويُضرب ويُسجن. وهو ماحدث للإمام إبن حنبل الذي سُجن في عهد المأمون مصفّدا في القيود لمدة ثلاث سنين، ثم أخرج في عهد خليفته المعتصم الذي فرض عليه إعتناق نفس المذهب، فلمّا رفض ضُرب ضربا مبرّحا بين يديّ هذا الخليفة. فالإمام إبن حنبل كان يقول بصحّة وقبول النصّ عن صفات الله دون الحاجة الى استدلال، وكما ورد في كتابه المعروف (المناقب) يصفه تعالى بأنه سميع بصير متكلم قادر مريد عليم خبير حكيم عزيز ليس كمثلهُ شيء. ثم مرّ بنفس المحنة تلميذه المجتهد الكبير الإمام تقي الدين إبن تيمّية، فدافع عن رأي أستاذه دفاعا استعمل فيه المنطق العقلي، وخاض جدلا طويلا في مثل هذه المسألة التي أفتى فيها في كتاب (الرسائل والمسائل) قائلا "السلف قالوا لم يزل الله متكلما اذا شاء، وإن الكلام صفة كمال. ومن يتكلم أكملُ ممّن لا يتكلم. وهو يتكلم إذا شاء بالعربيّة، كما تكلّم بالقرآن العربي، وما تكلّم فهو قائم به ليس مخلوقا منفصلا عنه، فلا تكون الحروف التي هي مبني

أسماء الله الحسنى وكتبه المنزّلة مخلوقة، لأن الله تكلم به ". كما كانت لإبن تيمية مناظرات أخرى عديدة، منها موضوع زيارة قبور الأولياء فُسّرت من خصومه على أنه يشكك في زيارة الكعبة، وحُرّض عليه العوام، وحدثت فتن ومشاحنات بشأنه، إذ سُجن في القاهرة ودمشق، كما ضُرب وأهين في عهد الخليفة المنصور. واتخذت سيرته منحى دراماتيكيا، لأنه نشط في تحريض جموع المسلمين في مصر والشام على الجّهاد، وأصدر الفتاوى للسلاطين والأمراء بضرورة التصدّي لغزو التتار للعراق والشام الذين خرج عليهم قطز حاكم مصر، وهزمهم في معركة (عين جالوت) المعروفة بالقرب من دمشق، حيث دخلها منتصرا. وكان الإمام ابن تيمية مصاحبا للجيش المنتصر.

وهكذا يتضح لنا أن الإجتهاد من قبل الأئمّة الاربعة في السنّة، وما تفرّع عنه من مدارس، أدارها فقهاء وعلماء دين مجدّدون، راج بصفة خاصة في أواخر العهد الأموي واثناء العهد العبّاسي الذي شهد ازدهارا فكريّا منقطع النظير، بفضل إتساع رقعة الفتوحات، وما أعقبها من إختلاط بشعوب ذات ثقافات وحضارات اخرى. وكما رأينا فإن أئمّة الإجتهاد والمصلحين في السنّة أصبحوا بحكم خوضهم في القضايا العامة، وما يهمّ أمور الرعيّة، سواء في العبادات أو السلوك والعادات، منغمسين في أمور السياسة والحكم وأصوله. ويكفي لتدليل على ذلك الإستشهاد بقول عالمين إمامين من أشهر فقهاء السنّة، وإن كانا يختلفان في بعض مسائل الفقه والفلسفة، ونعني بهما إبن القيّم الجوزية الذي قال في كتابه المعروف (أعلام الموقعين) "الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطّاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم. فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرّسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء. ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء، وكان الناس لهم تُبّعا، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما ". والإمام الغزالي رأى في رسالته (أيّها الولد): إن هدايا السلاطين ولو كانت من الحلال، إلاّ أنها تولد المداهنة والرياء، ومعنى ذلك مراعاة جانبهم والموافقة في ظلمهم، وهذا معناه فساد في الدين". وقال في (إحياء علوم الدين) "إنما فسدت الرعيّة بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء. فلولا القضاة السّوء والعلماء السّوء، لقلّ فساد الملوك خوفا من إنكارهم، ولذا قال (ص) :"لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما لا يماليء قُرّاؤها أمراءها"

فالعلماء المصلحون في السنّة – كما رأينا - يتعرّضون للعنت والمحن إذا ما كانوا مناوئين لتحكّم وظلم الحكام، فيصبح المجتهد إمّا ممالئا للسلطة أو ثائرا مخاصما لها.

أمّا عند الشيعة فالإجتهاد يتخذ طابعا مطلقا، لا يحتمل الدّحض والمناقضة، لأن الفقهاء ينطقون نيابة عن الإمام الغائب أو المستتر، فيصبحوا ذوي سطوة وكلمة مسموعة تؤهّلهم لأن ينتقدوا السلطة وتصرّفات الحاكم، بل وفرض الرّقابة عليه، لأنه لا يعدو كونه مُسيّرا للأمور، ومحافظا على شئون الرعيّة أثناء فترة غياب الأمام. ومفهوم الإجتهاد في فقههم هو "القدرة على إستنباط الأحكام الشرعية من مصادرها التفصيليّة، وقد يطلق ويراد به ممارسة المجتهد الذي حصلت له ملكة الإستنباط لنفس عملية الاستنباط. وينقسم الإجتهاد بذلك إلى: إجتهاد بالفعل، أيّ الإستباط الفعلي للمسائل، وليس مجرد حصول القدرة على الاستنباط -إجتهاد بالملكة، وهو القدرة على إستنباط الأحكام الشرعية، سواء قام بالفعل بعملية الإستنباط أو لم يقم - إجتهاد تجزيئي، وهو القدرة على إستنباط الأحكام الشرعية في بعض أبواب الفقه دون البعض الآخر- إجتهاد مطلق، وهو القدرة على إستنباط الأحكام الشرعية في جميع أبواب الفقه."

وفي السنوسيّة كانت أبرز اجتهادات الإمام المؤسّس تركيزه على الأحاديث النبويّة، ففي كتابه (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن) استغرقت مقدّمته ثلث الكتاب، وقد اقتبس فيها من الإمام (إبن تيميّة) في رسالته (رفع الملام عن الأئمّة الأعلام)، حيث ناقش عدم عصمة الأئمّة السابقين بالقول: ألا ينبغي على الجماعة الأخذ بجميع تفسيراتهم، إذا ما جاءت مخالفة للسنّة النبويّة في الأمور الكبيرة أو الصغيرة. ثمّ خصّص فصوله الثلاثة (للحديث) و(الإجتهاد) و(التقليد). وفي هذا نقل السنوسي الكبير في كتابه السالف عن الإمام بن حنبل ما يلي :"قال ناصر السنّة الإمام أحمد بن حنبل لأبي داود وقد سأله أيتبع الأوزاعي أم مالك فقال: لاتقلّد دينك أحدا من هؤلاء. ما جاء عن النبي (ص) وأصحابه فخذ به - وذكر أن الرجل مخيّر في التابعين . وقد فرّق (صلعم) بين التقليد والإتباع، فقال أبو داود سمعته يقول: الإتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي (ص) وأصحابه، ثم فيمن بعد من التابعين مخيّر. وقال لأبي داود: لا تقلّدني ولا تقلّد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري. وخذ من حيث أخذوا. وقال: من قلّة فقه الرجل أن يقلّد دينه الرجال." وانطلق السنوسي الكبير في، رسالته (رفع الملام) من هذا لتحذير الأتباع من الإنسياق وراء كلّ ما رُوي عن الأئمّة السابقين، إذا ما كان ما قالوا به مخالفا للسنّة النبويّة التي ينبغي أن تتفوّق على أقوالهم. وإذا ما وُجد عالم أو فقيه أو إمام قال بأحكام تتناقض مع ما ورد في صحيح الحديث والسنّة ،فعليه أن يُقلع عنها ويتوقف. وعدّد عشرة أسباب لمخالفة هؤلاء الأئمّة للتقليد: تبدأ من الجهل أو عدم الإحاطة به الى عدم تطبيقه في حالات واقعيّة ممّا نتجت عنه الغفلة، فلا أحد قادر على أن يكون مخفيّا أو محجوبا في السنّة. وقد

وجد مفهوم الإجتهاد لدى الإمام السنوسي الكبير إهتماما من الباحث الأكاديمي النرويجي المعاصر (كنود فيكور) الأستاذ بكليّة الدراسات التاريخيّة والفلسفة في جامعة بيرجين، الذي استعرض أفكار الإمام الواردة في كتبه الفقهيّة، في دراسة تحليليّة، مقتبسة من كتاب ألفه عام ١٩٩١ بعنوان (الصوفيّة والفقهاء)، مشيرا الى رأي الإمام في أنه حتى الخلفاء الراشدين غير معصومين ومعرّضون للخطأ حين يتعلق الأمر بالتقليد، وما نُقل عن الرسول، وبالتالي الحكم بناء على ذلك، ذاهبا الى تصويب الخليفة معاوية عندما تجاهل ما أفتى به الخليفة عمر وكان اجتهاده أفضل واتبع التقليد عوضا عن ذلك. والإمام السنوسي بهذا وضع علامات استفهام حول الإعتماد المطلق على مدارس الفقه من ناحية، وعلى الروايات الستّ للتفسير من ناحية أخرى، مطالبا بضرورة تقييم هذين المصدرين نقديّا والتحقق منهما. واستخدام التقليد هو مفتاح للتفسير، وهذا أقرب الى الكشف الذي يمكن الحصول عليه. ثم يستشهد بقول الإمام: إن براهين القرآن والسنّة واحدة، وينبغي أن تُعطى الأسبقيّة على رأي أي مجتهد أو فقيه. بل: وتفضيل التقليد الضعيف على القياس الفردي. وبعد أن أورد أفكار السنوسي الكبير التي استعرضناها هنا، ذكر الهجوم الذي شنّه الشيوخ المصريّون عليه وعلى زملائه إبن إدريس والميرغني [٢٤]. في مسألة الإجتهاد، واعتبر أن النقطة الهامّة في جدال هؤلاء المنتقدين هي المكانة التي يتبوأها أئمّة المذاهب. فالسنوسي كرّر القول أكثر من مرّة، إنه إذ يعتبرهم نماذج للفضيلة تُحتذى، وعلمهم هو قمّة العلم، فهم أيضا ما فتئوا يؤكدون على نحو متواصل عدم عصمتهم، والحاجة إلى امتحان آرائهم في ضوء القرآن والسنّة. إلا أن هؤلاء المعارضين يزعمون – رغم ذلك – أن الأئمّة تلقوا معارفهم بوسائل تتجاوز القدرة البشريّة، أي بواسطة الإلهام من الرسول. وكان هذا القول هو حجّتهم بعد ذلك أمام الجيل القادم الذي أراد أن يناقش أقوال الأئمّة ومدى الحاجة الى تقليدهم. وخلص الباحث إلى القول :"إن الجدل في الإجتهاد الذي شارك فيه السنوسي كان جدلا ذا نطاق عالمي متسلسلا من الهند إلى المغرب الأقصى... وأن الآراء التي عبّر عنها سواء نظريّا أو بالطقوس العمليّة، لم تكن نتاجا لضيق أفق بدوي من الصحراء، بل كانت إستجابة عامّة للحاجة إلى إعادة إنعاش الفكر التشريعي الإسلامي ."

---

٢٤ ذكر الباحث النرويجي أن أبرزهم كانوا : شيخ الأزهر محمّد أحمد عليش ومصطفى البولاقي وشيخ الأزهر حسن العطار (١٧٦٦–١٨٣٥) وهذا مستغرب، إذ المعروف أن هذا الأخير كان من أوائل علماء التجديد اللذين اختلطوا بقادة الحملة الفرنسيّة، وهو القائل:"بلادنا لابدّ أن تتغيّر ويتجدّد فيها من العلوم والمعارف ما ليس فيها"! وربّما كان هجومه على السنوسي – وهو في بداية بثّ دعوته كما يتضح لنا من تاريخ وفاة الشيخ العطار- راجعا الى التنافس بين الفقهاء أو الظنّ الخاطيء بأن السنوسي من دعاة الوهّابيّة، لأنه باشر نشاطه الدعوي الأوّل في الحجاز. وقد نُشرت الترجمة الإنجليزيّة لتحليل الباحث النرويجي في الموقع الإليكتروني (ليبيا نيوز ليست) في شهر مايو ٢٠٠٤

ولقد تعرّض السنوسي الكبير في كتابه (إيقاظ الوسنان) لمسألة التكفير الحسّاسة والتي كانت – وربّما ما زالت - تُرمى جزافا، مستشهدا بالأحاديث والسيرة النبويّة، وبما قاله حجّة الإسلام الغزالي من "أن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرّحين بقول لا إله إلا الله خطأ " وضرب مثلا لذلك بقصّة رجل في مصر "وقع في عبارة موهمة بالتكفير" فأفتى العلماء بذلك، وقبل أن يهمّ السلطان بإعطاء الأمر بقتله، طلب أن يستفتي من تبقى من العلماء، فكان الشيخ جلال الدين المحلى، فلمّا استدعي ورأى المتّهم مصفدا بالأغلال سأل عمّن أفتى بتكفيره، فأجابه الشيخ البلقيني بأن والدي شيخ الإسلام سراج الدين هو من قام بذلك، فردّ بالقول "يا ولدي أتريد أن تقتل مسلما موحّدا يحبّ الله ورسوله لفتوى أبيك؟ حلوا عنه الحديد، فجرّدوه وأخذه الشيخ جلال الدين بيده وخرج والسلطان ينظر، فما تجرّأ أحد يتكلم ".

وحين أشار الباحث النرويجي إلى هذه المسألة اقتبس العبارة التي نقلها السنوسي في كتابه (الإعجاز) عن السلف الصالح :"عندما ينادي مسلم مسلما آخر بأنه كافر، فمعنى ذلك أن أحدهما كفر" أو :"أن الكفر سيرتدّ على أحدهما".

ومن ناحية أخرى أدخل السنوسي الكبير بعض العادات (الأحكام) اثناء أداء فريضة الصلاة، خالفت ما كان متبعا في المذهب المالكي نفسه، وهو مذهبه،ففي كتابه (المسائل العشر) وصف لهذه العادات التي أدخلها في الصلاة في :"رفع اليدين في الصلاة، حكم القبض، حكم السكتات الثلاث، حكم الإستعاذة، حكم البسملة للفاتحة والسور، حكم التأمين، حكم التكبير لقيام الثالثة، حكم السلام والخروج من الصلاة، حكم القنوت ورفع اليدين فيه، حال الدعاء، حكم تطويل الصلاة وتقصيرها المشروعين" - والبعض من هذه العادات مثل "القبض"والتي تشبه مثيلها في المذهب الشافعي، أثارت إنتقاد وهجوم أئمّة التزمّت المالكي وعلى رأسهم الشيخ أبو عبد الله محمد عليش المتوفى عام ١٨٨١ م والذي ضمّنه كتابه (فتح لآلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك). وقيل آنذاك إن هذا الهجوم أوعز به السلطان عبد الحميد الثاني، سعيا منه الى الغضّ من مكانة السنوسي الكبير، لأنه استشعر خطورة دعوته الجديدة وما قد تجلبه من متاعب. ولم تكن القلاقل والاضطرابات الدمويّة التي سبّبتها الدعوة الوهابية في أنحاء الإمبراطوريّة العثمانيّة ببعيدة عن الأذهان [٢٥] ورغم أهميّة النقد المشار اليه والموجّه ضد المعتقدات السنوسية وسلوك شيوخها، فممّا يؤسف له

---

٢٥ يبدو ان ميل الشيخ عليش الى التقرّب والإتصال بالملوك والحكام الأجانب، قد انتقل الى إبنه الشيخ عبد الرحمن عليش إمام الأزهر الذي قدّم عام ١٩٠٧ الى أيمانويل ملك أيطاليا آنذاك هديّة : تمثلت في بناء مسجد بجوار الأزهر بإسم أومبرتو والد الملك المذكور بتمويل أيطالي طبعا، من باب التزلّف! وهو ما سيأتي ذكره أثناء الحديث عن التمهيد الإيطالي لإحتلال ليبيا.

أننا لم نعثر على نصوص مستقاة من الكتاب الأزهري سابق الذكرفيما تسنّى لنا الاطلاع عليه من كتابات المؤرّخين العرب؛ فجميعهم أشاروا اليها إشارة عابرة، كمعلومة دون إيضاح أو تفصيل لهذا النقد. بيد أن أحد المؤرّخين الإيطاليين وهو ماریاني **F.Mariani** في كتابه المشار إليه لخص لنا محتويات نقد الشيخ عليش للأساليب التي اتبعها الإمام السنوسي في بث دعوته، ورأينا للأهمية إثبات ما ترجمناه عن الإيطاليّة لأبراز النقاط الواردة فيه:

- وصف مراسم القداسة والتبجيل التي يحيط بها السنوسيّ اتباعُه، كأنها ارادت ان تجعل منه ملكا. وأنه احيانا يقيم مدة طويلة في مكان سكناه، ويتعمّد عدم الظهور حتى أثناء صلاة الجماعة يوم الجمعة لكي لا يصلي وراء الإمام. وهو يدعو الى اتّباع الكتاب والسنّة، ولكن حين يأتي البعض لمقابلته والتتلمذ عليه، يطلب منهم ان يتعلموا (الِورد) على يدي أحد المقدّمين من شيوخ الزوايا. وهذا غالبا ما تكون دروسه موجّهة الى الجميع دون تمييز في المقام أو الوظيفة، حتى لو كان بينهم (القساة) الذين[٢٦] يشتطون في فرض الضرائب دون وجه حق.
- يتّهم اتباعه بانهم يخالفون حتى المذهب الشاذلي الذي يعتنقونه وخاصة في مناسك الصلاة ، وعدّد عليش كثيرا منها ؛ كقراءة البسملة بصوت عال، وأن إمامهم يصمت بعد تكبيرة الإحرام ويُطيل سكوته بعد الفاتحة، كما يطيل في الرّكوع ..الخ .. وانه يدّعي ان الإفطار في رمضان اثناء السفر مفضّل على الصيام، ورغم أن أتباعه يُكثرون من الصلوات، إلا أنهم اثناء السفر يجوز لهم اختصار الصلوات بتجميعها في واحدة ، وأنهم يخلطون بين الوضوء والتيمّم، وأنهم يلتهمون كلّ ما تطاله ايديهم. وإذا ما نهاهم أحد عن ذلك يردّون عليه بانهم يقتدون بشيخهم ذي المقام العالي .. ثم يستشهد بوصايا الشيخ مصطفى البولاقي حول واجبات المتصوّفين، مثل ضرورة قبولهم للناس صغيرهم وكبيرهم، فقيرهم وغنيّهم بما في ذلك النساء والعبيد وهو ما أكد عليه الرسول الكريم.
- هاجم الشيخ عليش النظام المتبَع في الزاوية ووصفه بالاستغلال والإبتزاز، ويروي أنه إذا ما دخلت مواشي أحد الرعاة حرم الزاوية، حُجزت فيها وقدّم لها العلف والماء، وحين يأتي صاحبها لاستردادها، يُطلب منه دفع الثمن نقدا، وإذا رفض هُدّد بذبحها وتوزيع لحمها صدقة. وساق قصّة شخص مرّ بهذه المحنة، فقرّر التخلي عن الطريقة والرحيل، فلما سمع بأمره الشيخ السنوسي استدعاه وقال له "يمكنك أن تذهب منذ الغد لأن هذه مشيئة الله ". وفي نفس الليلة أعطي للمسكين شرابا سامّا سبّب له آلاما مبرّحة لفظ بعدها انفاسه في صباح اليوم التالي .. وعوّض إبنه تعويضا زهيدا تمثّل في خمس ريالات !

---

٢٦ وردت Almuksin بالإيطاليّة وقد تكون المقتطين، أو المقسين، أي القساة.

- يتهم السنوسيين بعدم الاهتمام بالكتاب والسنّة . انما ينصبّ همّهم على الحصول على ولاء المريدين الذين يأمرونهم باتباع اشياء غير شرعية، مثل التخلي عن المذاهب الاربعة، وقبول الإرشاد في الكتاب والسنة دون وسيط، حتى ولوكان من الأئمّة الاربعة، علما بان الوعظ في التصوّف دون عون من الامام يدلّ على الجهل والمروق، والذين يتلقون الوعظ على هذا النحو هم في حكم من يتعاطى الدواء دون طبيب. وحين يُلقي الإمام مواعظه على المريدين قائلا لهم "أبقوا على حالكم كما هو حتى لوكان من الآثام المحرّمة " فانه يرتكب المعصية لانه يمنع المؤمن من الرجوع الى صراط الله [٢٧].

وفي الحقيقة فالمؤرّخ الليبي د.علي محمّد الصلابي أطنب، أكثر من غيره، في شرح أدبيّات الإمام السنوسي عندما استعرض مؤلفاته. وممّا أكده أن السنوسي خالف مذهب الإمام مالك في بعض مسائل العبادات :"فكان يقبض في صلاته، ويقنت بعد الرّكوع، ويقصر في الصلاة أثناء السفر..إلخ[٢٨] وفي ملخّصه لمحتوى كتاب (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن) إقتبس الصلابي فقرات من الأقوال التي تثبت مخالفة السيد السنوسي للنهج الجامد الذي كان سائدا في المذهب المالكي، مستندا على أقوال للصحابة وفقهاء المذهب، مثل تفضيل أبي حنيفة للقرآن؛ ثمّ عمل الرسول؛ ثمّ قول الصحابي، إذا بدر من أبي حنيفة ما يخالف هذه المرجعيّات. واستدلّ بقول مالك بن أنس: "إنما أنا بشر أخطيء وأصيب فانظروا في راي، فكل ما وافق الكتاب والسنّة فخذوه وكلّ ما لم يوافق الكتاب والسنّة فاتركوه."، كما أخذ بتفريق بن حنبل بين (الإتباع) و(التقليد)، فالأوّل هو اتباع ما جاء عن النبي وأصحابه وبعدها يكون المرء مخيّرا؛ وبين (التقليد) الذي نهى أبو داود عنه قائلا له: "لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا. وقال : من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال " وكانت هذه من أسانيد السيّد السنوسي في الإجتهاد. وتأكّت شهرة السنوسي الكبير في نهجه الإجتهادي ممّن كتبوا عن سيرته من كبار المؤرّخين والفقهاء مثل الكتاني الذي وصفه بالقول : "كان أصله مالكي المذهب لكن لمّا توسّع في علوم السنّة رأى أن الإجتهاد متعيّن عليه فصار يعمل بما ترجّح عنده من الأدلة . [٢٩]

---

٢٧ ميريانو صفحة ٢٣٠ – ٢٣١ مرجع سابق.

٢٨ (الحركة السنوسيّة في ليبيا) – لعلي محمّد الصلابي الجزء الأوّل ص ١١٩ واعتبارا من ص ١٩٩ عدّد مؤلفات الإمام الثمانية المشهورة، وأعطى نبذة عن كلّ منها.

٢٩ أنظر (ليبيا في كتب التاريخ والسير) ص ٣٠٠

أمّا نقد الشيخ عليش فواضح أنه كان يعبّر عن ضيق وتبرّم من تعاليم السنوسية بلغا حد التحريض، لا سيّما في صدد الإجتهاد خارج نطاق المذاهب السُنيّة الأربعة التي كانت سائدة في مصر آنذاك، وهي نفس التهم التي شُنّت ضد إبن عربي من أنه: "لم يعترف بمذاهب هؤلاء الأئمّة في الفروع . وهذا غير صحيح لأن إبن عربي كان مالكيا في العبادات العملية، ولكنه غير مقلّد في الاعتقادات، بل كان من أتباع المذهب الظاهري لإبن حزم ولا يخفي أن التقليد في العقيدة منكر غير مشروع ولايجوز التقليد في التوحيد إلا في ظروف خاصة، كأن يكون المقلد أمّيا لا يستطيع التمييز بين الصالح والفاسد من الأحكام والعقائد؛ فيرخّص له بتقليد إمام مجمع على صحّة مذهبه الإعتقادي. أمّا أهل العلم فلا يجوز لهم التقليد في الإعتقادات أبدا. فكيف يُرمى الشيخ الأكبر – أي ابن عربي بالزندقة والإلحاد لأنه لم يقلّد في التوحيد ولم يُذعن لقول أحد إلاّ إذا طابق في نظره ما ورد صريحا في القرآن الكريم والسنّة القويمة ؟ " [٣٠] فمن الطبيعي ان يشكل هذا التحريض ضدّ السنوسي الكبير، الذي كان يقتدي بتعاليم إبن عربي، خطرا أحدق بوجوده في مصر، بل هدّد حياته نفسها إذ ورد في كتاب الإمام محمد عبده (الإسلام والنصرانيّة) أن السنوسي الكبير تعرّض فعلا لمحاولة الإغتيال فيقول "ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي – والد السنوسي صاحب الجغبوب - كتب كتابا في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على اصول المالكية، وجاء في كتاب له ما يدلّ على دعواه أنه ممّن يفهم الاحكام من الكتاب والسنّة مباشرة. وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد او مجتهدين، فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية، وكان المقدّم من علماء الجامع الأزهر الشريف، فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها؛ لأنه خرق حرمة الدين واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين. وربما كان يجتريء الأستاذ على طعن الشيخ بالحربة لو لاقاه، وإنما الذي خلّص السنوسي من الطعنة ونجّى الشيخ المرحوم من سوء المغبّة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل ان يلاقيه الأستاذ المالكي [٣١] .وواضح أيضا أن الشيخ محمّد عبده وهو من أئمّة التجديد، قد سرد هذه الواقعة في معرض التعاطف مع السنوسي الكبير، وحقه في اتباع الإجتهاد الذي اعتنقه ودعا اليه.

---

٣٠ "جاء هذا التعليق بقلم محمد الشربتلي رئيس تحرير جريدة الأمة المصرية في معرض سرده لحياة إبن عربي وآثاره، ونشرته مجلة (النادي) التي أصدرها في القاهرة الطبيب الأيطالي إنريكو إنسابتو، والذي كان يدير فيها شبكة تجسّس لصالح احتلال ليبيا، وذلك في عددها لشهري نوفمبر –ديسمبر ١٩٠٧، وسيأتي ذكر دور هذا الجاسوس الإيطالي بالتفصيل حين التعرّض للإستعمار الإيطالي لليبيا.

٣١ الإسلام دين العلم والمدنيّة (للشيخ محمد عبده –تقديم د.عاطف العراقي-سينا للنشر القاهرة ١٩٨٧